الفصل الثالث

إحياء سُنة الوقف لإحياء دور المسجد في المجتمع المُسلم

أولًا: مفهوم الوقف:

أ) المقصود بالوقف:

الوقف هو مال أو عقار يقوم شخص أو مجموعة أشخاص بالتبرع به لهدف يُحدد في وثيقة الوقف كأن يُنفق ريع العقار على تعليم أبناء المُسلمين أو الإنفاق على المسجد أو غيرها من أعمال الخير والوقف وشروطه وكيفية إدارته، وردت التفاصيل في كُتب الفقه وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى هذه السُنَّة النبوية ودورها في دعم دور المسجد في المجتمع عن طريق أن تجعل للمسجد مصادرًا مُستقلة لتمويل أنشطته وقابلة للتغير وفقًا لتغيرات السوق[١٧].

ب) ما هو الدور الاجتماعي للوقف؟

الوقف يُمكن أن يفعل أشياء كثيرة فهو يربط بين الأجيال الماضية والحالية والمستقبلية، ويسمح للمؤسسة بالقيام بالتزاماتها في المستقبل البعيد، كما يضمن أن الموارد اللازمة للوفاء بتلك الالتزامات ستظل متاحة ومتغيرة.

والوقف هو مجموعة من الأصول تقوم إدارة الوقف باستثماره لدعم الهدف الذي تم من أجله الوقف إلى الأبد، وإدارة الوقف يُمكن أن تكون تحت يديها المئات وربما الآلاف من الأوقاف الفردية أو الصغيرة. يسمح الوقف للمانحين بتحويل أموالهم الخاصة لخدمة المنافع والأغراض العامة وتظل مؤسسة الوقف مستمرة في العطاء ما دام التمويل مُستمرًا.

---

(١٧) Bruce, Charles W, ١٩٩٩ "**An analysis of the effects of** endowment **management practices on portfolio performance**", PHD, Auburn University, USA, Pp١٠-١١.

ت) الأوقاف تخدم المؤسسات والجمهور من خلال:

- ✓ ***توفير الاستقرار:*** بمرور الوقت تحدث تغيرات في تكاليف الأنشطة فعلى سبيل المثال نجد أن كثير من مؤسسات التعليم من المدارس وحتى الكليات والجامعات تتغير تكلفة خدماتها بتغير الزمن وهذا التغير ناتج من اختلاف قيمة الرسوم الدراسية، واهتمام المانحين، ودعم الدولة لهذه الأنشطة (ويأتي الدعم في الغالب من الحكومة فالوقف سيوفر هذا الدعم لمشروعات أخرى)، لهذا الهدف نجد أن حكومة مثل: الولايات المتحدة الأمريكية أقرت الوقف للجامعات والمؤسسات البحثية. فعلى الرغم من أن أرباح التبرعات تختلف أيضًا مع تغيرات الأسواق المالية واستراتيجيات الاستثمار، إلا أن معظم المؤسسات تتبع مبادئ توجيهية تهدف للتحكم في ضبط مُعدلات الإنفاق بهدف تخفيف التغيرات الاقتصادية والوصول إلى أقصى استقرار ممكن، ونحن في الأوقاف لا نُنفق أصل التبرعات ولكننا نُنفق العوائد المالية المتولدة نتيجة أرباح هذه التبرعات وتوجيهها لدعم أولويات المؤسسة كل عام. هذا الاستقرار مهم بشكل خاص للأنشطة التي لا يمكن البدء فيها وإيقافها بسهولة وهذا يجعل عملية التخطيط أكثر استقرارًا. وفي مجال التعليم في الولايات المتحدة على سبيل المثال نجد أن الأوقاف تدعم بصورة

مستمرة الطلاب، وأعضاء هيئة التدريس، والبرامج الأكاديمية المبتكرة، والبحوث الطبية، والمكتبات[١٨].

- ✓ ***الاستفادة من مصادر الإيرادات الأخرى:*** وبالتركيز على نظام الوقف في خدمة التعليم نجد أنه وفي الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا في السنوات الأخيرة، كان هناك دعم واضح في صورة معونة خاصة للطُلاب، فقد نجحت مؤسسات الأوقاف من تمكين الجامعة من القيام بدورها. فالجامعة التي لديها مؤسسات أوقاف قوية يُمكن أن تُطبق مبدأ القبول الأعمى للطلاب أي قبول الطلاب دون النظر إلى الظروف المالية لكل طالب وتقديم مساعدات مالية كافية لتمكين هؤلاء الطلاب المقبولين من الاستمرار في التعليم. كما تسمح إيرادات الأوقاف للجامعة بتوفير مستوى أعلى من الجودة أو الخدمة بسعر زهيد قدر المستطاع. هذا الأمر كان في غاية الأهمية في السنوات الأخيرة، خاصة بالنسبة للمؤسسات التي تقبل دعم الجمهور بسبب انخفاض دعم الدولة. من دون تبرعات أو غيرها من مصادر التمويل الخارجي كانت ستضطر المؤسسات إلى تقليص برامجها بشكل أكبر، وفرض زيادة الرسوم الطلابية لكي تتمكن من تقديم الخدمات والبرامج الأكاديمية بالأسعار الحالية.

(١٨) American Council on Education, ٢٠١٤ "**Understanding College and University Endowments**", American Council on Education, Leadership and Advocacy, Pp.٥٥-١٢٠.

- ✓ ***تشجيع الابتكار والمرونة:*** وفي التعليم أيضًا نجد مؤسسات الوقف تُساعد أعضاء هيئة التدريس والطلاب على إجراء البحوث المبتكرة واستكشاف مجالات أكاديمية جديدة وتطبيق تقنيات جديدة وتطوير طُرق تدريس جديدة وهذا عند صعوبة الحصول على التمويلات من مصادر أُخرى مثل: الرسوم الدراسية أو التبرعات المُباشرة. ساعدت الأوقاف -وما تُدرّه من ريع شبه ثابت- الجامعةَ على المشاركة في مجالات جديدة ومبتكرة في مجالات العلوم والطب والتعليم وغيرها من المجالات.
- ✓ ***السماح بأُفق زمني أطول:*** الأوقاف تختلف عن التبرعات التي يتم إنفاقها بمجرد الاستلام لأن عوائد الأوقاف تظل مستمرة إلى الأبد أي فترة زمنية طويلة للغاية. يمكن للمؤسسات التي تقبل التبرعات في صورة أوقاف أن تُخطط بشكل إستراتيجي لاستخدام مجموعة أكثر توثيقًا من الأرباح لتعزيز وتحسين جودة برامجها، حتى لو كانت هناك حاجة لسنوات عديدة لتحقيق بعض أهدافها.

وهذه فقط أمثلة على فوائد الأوقاف على التعليم ويُمكن بسهولة توجيه فوائد الأوقاف نحو دعم الصحة أو لأي وجه من أوجه الخير المُفيد للمجتمع والذي يُمكن أن تُدار من خلال مؤسسة المسجد.

- ✓ ***كيف تُدار الأوقاف؟*** كل مؤسسة أو كل مسجد يكون له إستراتيجياته وقواعده الخاصة به والتي تهدف إلى تعظيم قدرة الأوقاف على دعم الإنفاق الحالي والاحتياجات المستقبلية. تدير

بعض المؤسسات هذه الأوقاف عن طريق موظفيها وهناك مؤسسات أخرى تستعين بمجلس للأمناء أو تتعاقد مع مديرين محترفين آخرين، وهناك أساليب أخرى. هناك بعض المؤسسات تسعى إلى تحقيق أقصى دخل ممكن بينما تذهب مؤسسات أخرى وتُركز على إجمالي العائد (وهو الدخل الذي يتماشى مع ارتفاع قيمة رأس المال)، والأغلبية تعتمد قواعد الإنفاق الرسمية التي تسعى إلى:

١) ضمان تدفق متزايد من الإيرادات من التبرعات لدعم النفقات السنوية.

٢) ضمان إعادة استثمار كافية بحيث يتم الحفاظ على قيمة الوقف والتوافق مع ارتفاع التكاليف الإدارية مع مرور الوقت.

٣) زيادة القدرة على التنبؤ عن طريق تجنب التغيير في الأرباح[١٩].

لتحقيق الهدف الثالث، قد تدعو المؤسسة إلى إنفاق جزء صغير إلى حد ما من الأرباح على إدارة وصيانة وتنمية الوقف، أثبتت هذه الإستراتيجية أنها الطريقة الأفضل لتوسيع ميزانية المؤسسة وتحقيق عوائد أعلى في المستقبل.

(١٩) Ibid, Pp.١٢٥-١٣٠

فوائد الأوقاف للمجتمع

- تسمح الأوقاف للمؤسسات بتقديم خدمة ذات جودة عالية.
- تُشكِّل الأوقاف طريقة جيدة للدعم الموثوق به على المدى الطويل كذلك تسمح للمؤسسات بزيادة المعونة للفقراء وذوي الاحتياجات الخاصة، وفي مجال التعليم تسمح بتطوير الأبحاث والبرامج التعليمية الجديدة والمبتكرة والحفاظ على المكتبات والمختبرات وغيرها من الأصول المادية.
- تسمح الأوقاف للمؤسسات بالمشاركة والتخطيط بعيد المدى بثقة في أن لديها الموارد اللازمة لإكمال مشاريعها.
- هذه الأدوار تلعبها الأوقاف في البلاد التي لا تستمد شريعتها من الشرائع الإسلامية في البلاد الغربية ومن المعلوم أن القدرة على الوقف وإدارته إذا توافرت الإدارة المحلية وسمحت جهات التشريع بإعادة قوانين منظمة للوقف فإن فوائدها ستكون أكثر وأعم.

ثانيًا: الدور العلمي والثقافي للأوقاف في الحضارة الإسلامية:

الإسلام هو الدين الخاتم لذلك كان شاملًا لكل جوانب الحياة، ولأن الإسلام يهتم بالعلم والعلماء فلم يقف عند مستوى الشعارات والكلام غير القابل للتطبيق ولكنه اتخذ منهج عملي في بناء نظام اقتصادي فريد يعتمد على الصدقات والزكاة والوقف، وهذه كُلها تذهب لتدعيم وتقوية البناء الاقتصادي للمجتمع، ومن ذلك أنه حَبَبَ وقف الأموال

والممتلكات للناس لخدمة العلم والبحث العلمي والمشتغلين فيه، والمتصفح للتاريخ الإسلامي يجد أنه ممتلئ بأُناس أوقفوا دورهم وأراضيهم لخدمة تعليم أبناء المُسلمين، لذلك نرى المدارس والكتاتيب والمساجد في شتى بقاع العالم الإسلامي تعمل من ريع هذه الممتلكات الموقوفة. ففي فلسطين وحدها نجد العديد من هذه الأوقاف المخصصة لتعليم أبناء المُسلمين وأقدم هذه الأوقاف الوقف الذي أوقفه رسول الله – ﷺ – للصحابي "تميم الداري" وذريته.

هذه الأوقاف كانت هي العمود الفقري لنظام الإنفاق على الفقراء وعلى طلبة العلم والمُعلمين، ويكفي أن نعلم أن عدد المدارس التي بُنيت في بيت المقدس وحدها في القرن الخامس وحتى الثاني عشر الهجري سبعين مدرسة تمويلها بالكامل من هذه الأوقاف، وما حدث في بيت المقدس كان يحدث في ديار الشام والديار المصرية وكل بقاع العالم الإسلامي. كانت هذه الأوقاف متنوعة فمنها المحال التجارية والدكاكين والأراضي الزراعية وغيرها يذهب ريعها لصالح الجهة التي يُحددها الواقف وهي في الغالب كانت تذهب للمساجد ولمدارس تعليم أبناء المُسلمين. ومن أشهر هذه الأوقاف:

- المدرسة الصالحية بالقدس التي أوقف عليها السلطان صلاح الدين سوق العطارين بالقدس، وأراضي زراعية شاسعة.
- مدرسة الأشرفية بالقدس التي أوقف عليها السلطان المملوكي قيتباي (٢٨) قرية، و(١٤) مزرعة، و(٢٢) عقار.
- واستمرت هذه الأوقاف تُنتج ويذهب ريعها لهذه المدارس في بيت المقدس ونشأت التكايا (أماكن لإطعام وإيواء الفقراء

وعابري السبيل دون مقابل) ودور الصدقات ودور رعاية الطلبة والمعلمين والفقراء حتى استولى عليها اليهود في حرب ١٩٦٧م[٢٠].

في بداية الحضارة الإسلامية كانت الأوقاف توجه للمساجد ومع تطور الحضارة توجهت لبناء المدارس التي يتعلم فيها أبناء المُسلمين شتى أنواع علوم الحياة الدينية وغير الدينية، ومن أفضل الأمثلة على دور الوقف في الحياة العلمية "المسجد الأزهر" بالقاهرة فقد كان ملتحق به أماكن يعيش فيها طُلاب العلم القادمين من شتى بقاع العالم الإسلامي على نفقة أوقاف هذا المسجد الكبير، وتطور المسجد حتى أصبح جامعة يُدَرس فيها الطب والعلوم، وله عدة أفرع كلها تُمول من ريع الأوقاف[٢١].

ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية في أحداث ٦٣١هـ أنه تم افتتاح المدرسة المستنصرية ببغداد وكانت أوقافها تكفي لأربعة أقسام للمذاهب الأربعة لكل مذهب ٦٢ فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدرس، وشيخ حديث وقارئان وعشرة يشتغلون بالطب ومكتب للأيتام وخزانة كُتب لم أرَ مثلها.

وفي بلاد المغرب العربي على سبيل المثال كانت الأوقاف مخصصة لـ:

١) أوقاف لحفظ القرآن الكريم وتوفير الألواح والأقلام ورواتب المعلمين.

٢) أوقاف لسُكنى طلبة العلم.

---

(٢٠) الضحيان، عبدالرحمن بن إبراهيم، (٢٠٠١م) "الأوقاف الإسلامية ودورها الحضاري الماضي والحاضر والمستقبل"، دار المآثر بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، صـ (٧٧:٩٤)

(٢١) المرجع السابق، صـ (٩٧:١٠٠)

٣) أوقاف للإنفاق على علماء شرح تفسير الفخر الرازي، وشرح صحيح البُخاري، ولشرح الفقه الملكي، وغيرها في أفرع العلوم والسيرة النبوية.

من خلال هذه الأمثلة القليلة نجد الدور العظيم الذي كانت تقوم به الأوقاف التي يُوقفها التجار والأغنياء والملوك والأمراء وعموم المُسلمين في إثراء الحياة العلمية في العالم الإسلامي، ويمكن تلخيص هذا الدور في:

أ) تشييد المدارس والإنفاق على المعلمين وطلبة العلم.

ب) دعم الدور التعليمي للمسجد.

ت) توفير الأدوات التعليمية من كُتب وأقلام للمؤسسات التعليمية.

ث) الإنفاق على خزانات الكُتب (المكتبات) والعاملين فيها من الكتبة والنساخين وشراء كُتب جديدة، وبلغ من كثرة المكتبات في العالم الإسلامي أنّ "أبا حيان التوحيدي" النحوي المعروف كان يعيب على طلبة العلم شراء الكُتب لأنها متوفرة في المكتبات العامة.

ج) كانت مكاتب العُلماء بعد موتهم يحملها الورثة إلى المساجد والمكاتب العامة وهذا كان يُضيف للحياة العلمية وهذه السُّنَّة للأسف تعطلت الآن.

نماذج للأوقاف على المسجد النبوي: في المسجد النبوي نجد عددًا لا يُمكن حصره من الكُتب إما أوقفها المؤلفون أو اشتراها الناس ثم أوقفوها

للمسجد، وهذه الكُتب في شتى أنواع العلوم من تفسير وحديث وعلوم أخرى مثل: الإدارة والحساب وغيرها.

مميزات اعتماد المدارس والمؤسسات التعليمية على الأوقاف: من أهم فوائد اعتماد مؤسسات التعليم على ريع الأوقاف كما سبق الإشارة إليه:

- ضمان استمرار التمويل ونموه وفقًا لتطور الزمان حتى بعد وفاة الواقف فإن إدارة الوقف التابع للمؤسسة تُدير هذا الوقف بالصورة التي تخدم المؤسسة التعليمية.
- استقلال المدارس والعاملين بها عن أي سُلطة قد تستغل الإنفاق عليها لأغراض لا تخدم المجتمع المُسلم.
- الواقفون يوفرون كل ما تحتاج إليه العملية التعليمية من أماكن للتعليم ورواتب معلمين وأدوات تعليمية وأماكن لسكن المعلمين والطلاب مع توفير الطعام أو المال الذي يشترون به الطعام والملابس، هذا واضح في نصوص أوقاف كبيرة في دمشق والقاهرة والقدس ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وغيرها.
- نرى أن رواتب المعلمين ترتفع بمرور الوقت من (١٠:١٠٠) دراهم للعامل حتى أصبح يتراوح بين (١٠٠:٦٠٠) درهم، وهذا مُسجل في دفاتر إدارة بعض الأوقاف وزيادة الرواتب مع تطور الزمن يعني التوافق بين ارتفاع الريع الوقفي وتطور الحياة الاقتصادية.

- الأوقاف كانت توفر كميات مُحددة للعلماء وطلبة العلم من الغذاء في صورة حصص يومية مثل: الخُبز والزيت والصابون وغيرها[٢٢].

ثالثًا: الدور الاجتماعي والإنساني للأوقاف في الحضارة الإسلامية

يُلخص الأستاذ "الهاشمي الفيلالي"، وزير الأوقاف السعودي الأسبق الدور الاجتماعي الذي قامت به الأوقاف في الحضارة الإسلامية في عدة نقاط أهمها:

١) الوقف كان يُمول المؤسسات الإنسانية مثل: المستشفيات ورعاية العجزة والأيتام.

٢) الوقف كان يُمول المرافق العامة كحفر وصيانة الآبار وتعبيد الطرق.

٣) أموال الوقف كانت تقوم ببناء المساجد والمدارس والمؤسسات التعليمية ويضمن استمرارها قادرة على العطاء.

هذه المؤسسات كانت تخدم المجتمع وهي تستمد روح عملها من العقيدة الإسلامية وهي تختلف في دورها عن المؤسسات الخدمية القائمة في العالم الإسلامي اليوم التي تؤدي دور وظيفي يُشبه تلك المؤسسات القائمة في الغرب، الأوقاف الإسلامية تهدف بالأساس إلى تأدية دور اجتماعي لأن خدمة المجتمع بتوفير كل ما يحتاج إليه من مساجد ومدارس ومستشفيات

(٢٢) المرجع السابق، صـ (١٠٢:١٠٩).

ودور رعاية الأيتام والعجزة وغيرها كل ذلك يصب في صالح المجتمع المُسلِم بصفة عامة.

هذه المؤسسات تُقلل إلى حدٍ بعيد التقسيمات الطبقية الموجودة في المجتمعات غير المُسلمة.

وفي فترة ازدهار الحضارة الإسلامية كانت الأوقاف مُقسمة لنوعين:

- النوع الأول أوقاف تنشئها الدولة وتوقف عليها أوقاف واسعة لضمان استمرارية الإنفاق والتمويل.
- النوع الثاني يُنشئه الأفراد بالكامل، أي يقومون ببناء مؤسسة تُقدم خدمات مُعينة للمجتمع ثم يقوم الأفراد بتنظيم وقف إنتاجي كأرض زراعية أو محال تجارية ليذهب ريعها لصالح المؤسسة الخدمية.
- في كل الحالات كانت هذه الأوقاف تقوم بتقديم خدمات متنوعة للمجتمع المُسلم مثل: التعليم ورعاية الأيتام وإطعام الفقراء والمساعدة في تزويج الشباب، فالأوقاف كانت ذات:
- طبيعة دينية مثل: بناء المساجد وتوقيف الممتلكات للإنفاق عليها.
- طبيعة مجتمعية مثل: المؤسسات التي تُقدم خدمات للمجتمع مباشرة كالتعليم والرعاية والعلاج ورعاية أبناء السبيل المنقطعين عن أوطانهم، وغيرها.

ويرى ابن خلدون: أن من أسباب انهيار المجتمعات قلة الوقف على التعليم، ويتفق معه كثير من العلماء في هذا الأمر لأن التعليم متصل بسائر الصناعات والأعمال في المجتمع المُسلم فالأوقاف تدعم استقرار المجتمع

وتفعل مالا تستطيع أن تفعله الحكومات لأنها تستطيع أن تنتشر في أعماق المجتمع فتُساعد على استقرار المجتمع وازدهاره، ولها أدوار متعددة من منظور حديث منها:

أ) الدور الاجتماعي للأوقاف في رعاية الأيتام: الأيتام انقطع مصدر دخلهم بموت أحد الوالدين وهؤلاء الأيتام لا يجب أن يتحولوا إلى متسولين أو مجرمين في المجتمع المُسلم، هنا يبرز دور الأوقاف لكي تكفيهم مشاكل الحياة وترعاهم وتقوم بالإنفاق على الراغب في التعليم منهم وتزويج من لا يستطيع وهكذا، ومن هذه الأوقاف كما في أحد أوقاف العصر المملوكي نجد نصَّ الوقف يوضح أن يُمنحَ كلَّ يتيم ملبسًا في الصيف وملبسًا في الشتاء ونعلًا ليلبسه في قدمه.

ب)دور الأوقاف في الضمان الاجتماعي: المُسلم بطبعه وجبلته الإيمانية شفوق رحيم على كل ضعيف ومحتاج وهو يُحب أن يتخافت بصدقاته ويُحب أن تكون صدقته مستمرة بعد موته لذلك تأتي الأوقاف لتُلبيَ فطرة المُسلم النقية وحاجة المجتمع، والإسلام في ذلك الشأن سبق قانون حقوق الإنسان بمئات السنين الصادر في ١٩٤٨م، فالأوقاف تُقدم ضمانات اجتماعية كثيرة منها:

- إعالة الأسر الفقيرة.
- إعالة العجزة والمرضى والمصابين في الحوادث أو غيرها كمُصابي الحروب.
- بناء المستشفيات للعلاج المجاني.

- محاربة الجهل من خلال بناء المؤسسات التعليمية وتعهدها.
- من خلال هذا العرض المختصر نجد الأوقاف تجعل المجتمع المُسلم مترابطًا متماسكًا يتحمل الأغنياء بما أوقفوه من مال بقية المحتاجين من أفراد المجتمع[٢٣].

(٢٣) المرجع السابق صـ (١٠٧:١١١)